كيف تلهو نيويورك . . .

عود إلى لغة الأرقام .

لا عجب فى أن أتخذ هذه اللغة بين الفينة والفينة ؛ فانى ما برحت نزيل أمريكا ، أتنسم هواءها ، وأحيا فى مغانيها . وليس لأمريكا معنى إلا أنها أرقام وأرقام . . .

أرقام متكاثرة متعالية . . .

نواطح سحب أخرى ، قوامها الأعداد لا الأحجار !

ليس ذلك بمقصور على ميادين العمل المختلفة ، ولكنه يتعداه إلى الملاهى وما إليها من ضروب المتع .

تضم مدينة نيويورك سبعمائة مبنى بين مسرح للتمثيل ، ودار للسينما ، إلى جانبها ثلاثمائة وألف من أندية الليل ، تلك التى يسمونها بالفرنسية « الكباريهات » ، ولعلنا لا نخطئ إذا سميناها : المساهر .

هذه المواطن ، على اختلاف أنواعها ، بمثابة متنفس لسكان مدينة التزاحم والضجيج . . . هؤلاء الآدميين الذين لو انتقلوا من عقال مدينتهم لكانوا أحرياء أن يعمروا أقطاراً شواسع .

تعمل تلك المسارح والمساهر وما إليها فى هذه المدينة عمل النوافذ للحجر والرئات للأجساد .

إنها مثوى راحة ، ومثابة استجمام ، لذلك الآدمى الذى ينهمك فى عمله ، رغبة فى الدولار ، كما كان ينهمك عمال السخرة فى الزمن القديم ، رهبة من العقاب .

وبديه أن تكون تلك المتنفسات موفورة الحظ من أسباب الدعة والتسلية وإمتاع النفوس ، وإلا انعكست الآية ، فازداد قصادها رهقاً على رهق ، وشقيت أعصابهم بعذاب جديد .

وطوعاً لذلك الغرض المنشود حرصت تلك الدور على أن تقدم لروادها من نتاج الفن ثمرات دانية المنال . أخاذة المظهر ، وشراباً قريب المنهل ، سائغ المذاق ، وأن يكون فيها من عناصر التفكهة والمرح ما يملأ النفوس من اغتباط ، وينسيها ما يثقلها من أعباء المعاش .

ومن ثم كان الروح الغالب فيما يعرض بتلك الدور هو روح التسلية المحضة . على أن التسلية ألوان ، وإن منها لما يصدف عنه الرجل المهذب الذى علت ثقافته وصفا ذوقه ، فلم تعد نفسه تبتهج بالرخيص من التسليات . ولذلك تعددت ألوان المسارح والمراقص والمساهر ، لكى تواتى مطالب الأذواق والأهواء .

وعلى الرغم من أن روح التسلية تسرى فى هذا النتاج الفنى وتتدانى به أحياناً إلى درجات التفاهة أو الانحراف ، فان ذلك النتاج بمجموعه فى المستوى الذى يلائم بلداً متحضراً ، أهلوه على حظ ملحوظ من الثقافة وسلامة الذوق .

خرجت يوماً لأشهد حفلة موسيقية فى « ستاديوم كونسير » أستمع فيها إلى عازف على البيان أحسبه بولونى الجنس ، اسمه روبنشتاين . . . وبينما كنا نجتاز الطريق إلى المثابة المنشودة ، اعترضتنا زحمة هائلة اضطرب لها نظام المرور . وتناهى إلى أسماعنا أن وقائع دموية تجرى ، وأن رجال الشرطة يعالجونها ضبطاً للأمن . . .

وبعد حين استبانت لنا جلية الأمر ، فاذا بنا نعلم أن الزحمة لم تكن إلا إقبالا من الجمهور على شراء تذاكر لمشاهدة الملاكم لويس ينازل خصما كبير الخطر .

وكان الطريق على رحابته وامتداده يموج بتلك الجموع التى تتناقل الحديث والنقاش ، بين مشايع للملاكم العالمى ، وبين مناصر لخصمه الذى تصدى له .

فأذكرنى ما أرى مجالس « شاعر الربابة » فى العهود القريبة ، حين يتحلق الناس حوله ، يستمعون إلى ما يقصه من أساطير الزناتى خليفة وديباب بن غانم وما كان بينهما من حرب ونضال ، فاذا المستمعون فريقان : مشايع لهذا ، ومناصر لذلك . وربما أدى الخلاف إلى شجار بين الفريقين حامى الوطيس .

ما أشبه الآدمى بالآدمى ، مهما تختلف بهما الثقافة والتحضر !

ليس من فارق بين المعركة القائمة حول مجال الملاكمة ، وتلك المعركة التى كانت تقوم حول « شاعر الربابة » . . . إلا أن الجمهور الأمريكى تدور

معركته حول أبطال فى عالم الحقائق ، والجمهور الشرقى تدور معركته حول أبطال فى ذمة الأساطير وعالم الخيال .

ولقد انتقلت عدوى التحدث والمجادلة فى شأن هذه الملاكمة إلى ساقة السيارات ، فاندمج سائق سيارتنا فى غمار المتحدثين والمجادلين ، حتى خشينا أن تحدث مشاجرة نكون من وقودها دون أن نجنى ذنباً !

لقد كانت السيارات وهى تجتاز الطريق ، كأنها مراكز إذاعة متنقلة ، مراكز استقبال و إرسال فى شأن هذه الملاكمة الخطيرة .

وبعد لأى بلغنا « ستاديوم كونسير » فى سلام ، ولم نكد نطأ أرضه حتى ألفينا أنفسنا بين حشود من الناس يختنق بهم المكان .

إن « ستاديوم كونسير » رحبة فياحة مكشوفة للهواء الطلق ، ملئ نصفها بكراسى مصفوفة ، وأقيم فى نصفها الآخر مدرج عظيم . . . إنها ساحة للألعاب الرياضية على طراز رومانى ، يتخذونها أحياناً مثابة للفن ومسرحاً للموسيقى .

كانت هذه الآلاف المؤلفة يموج بها المكان و يرتج ، فما إن جعلت الموسيقى تطلق أنغامها ، حتى عم السكون ، فاستحال المكان كعبة عبادة يخيم عليها الخشوع .

ولما تجلى العازف البولونى يصافح البيان بأنامله ، راحت هذه الجموع الحاشدة تهيم معه فى آفاق روحية رائعة .

وانتهى العزف ، فاذا الجمهور المتعبد الخاشع ينبعث متهللا مرحاً ، يعلن حفاوته فى حمية بين التصايح والتصفيق .

يميناً إن الفنان فى روحه الانسانية السامية ليلقى من حفاوة الأمريكيين وتكريمهم مالا يقل شأناً عما يلقاه بطل الحرب وزعيم السياسة !

ولقد أثار انتباهى إقبال الجمهور الأمريكى بوجه عام على نوعين مختلفين متضاربين ، يستنفد فيهما وقت فراغه : أحدهما مجالات الملاكمة والصراع ، والآخر أندية الموسيقى والغناء .

ظاهرتان قد تبدوان على تناقض : نزعة إلى الوحشية تسايرها عاطفة رقة وحنان !

ليس ثمة من تناقض .

إن الطبيعة قوامها هذان العنصران من خير وشر، من شدة ولين . وما زالت الانسانية بخير ، إذا استوفت نصيبها من هذين العنصرين على درجة سواء . فان لم تتوافر السلامة والاتزان بينهما ، فطغى أحدهما على الآخر ، صار الأمر إلى فساد .

والدول فى ذلك كالأفراد ، بتكامل هذين العنصرين فيها ، تتصف بالاعتدال .

وليست فورات الشعوب فى الغارات والحروب ، إلا اختلالا فى أنسجتها الحيوية ، أفقدها ما بين العنصرين من توازن ووفاق . . .

إنها طغيان لعنصر على الآخر . . .

وما أقربه شبهاً بثوران بعض الأنسجة فى الأبدان ، ذلك الثوران الذى يحدث أوراماً سرطانية تورد صاحبها موارد الحتوف !

والمسرح فى نيويورك على تباين أنواعه لا يختلف كبير اختلاف عن أمثاله فى أمهات المدائن المتحضرة ؛ فما يعرض فيها على مسرح « متروبولتان أوبرا » تصادف مثله فى أوبرا باريس و « كوفنت جاردن » فى لندن . وما يعرض فى مسهر « كوبا كابانا » لا يزيد على ما يعرض فى مسهر « الليدو » فى باريس .

وقد تجد الرواية الفنية تمثل أعواماً تباعاً على أحد مسارح نيويورك فتذكر أن ذلك يجرى أيضاً على هذا النحو فى مسارح لندن . . .

و إذا ذكرت المسرح الثلجى المسمى « أيس شو » فى نيويورك طالعك على الفور قصر الجليد فى باريس المسمى « باليه دوجلاس » .

فان أبيت إلا أن تلتمس بينها بعض الفروق ، لم تجد إلا تلك الفروق المظهرية بين بلد وبلد ، من حيث الطابع المحلى ، والذوق الشخصى .

ولكن ثمة فى الفن الأمريكى ظاهرة خليقة بالذكر ، و إنى لأحسب أن أمريكا قد تفردت بها ، أو لعلها سبقت غيرها إلى تجويدها .

هذه الظاهرة وليدة فكرة يسمونها « تيسير الفن للجميع » وغرضها تحبيب الجمهور الكبير فى الفن الرفيع ، بعرض نماذج شائقة منه يستسيغها مستوى الذوق العام .

وقد تكفل مسرح « رديوستى هول » بتحقيق هذه الفكرة . . . وهو فى الحق مفخرة البناء المسرحى ، وآية إعجاز بين دور التمثيل .

إنه ليرحب بستة آلاف ومائتين من النظارة ، على مقاعد فسيحة وثيرة ،

لا تقل فخامة ولا روعة عن المقاعد فى أمهات دور الأوبرا فى العالم المتحضر .

فأما الأجر الذى يؤديه المتفرج ، فهو زهيد تافه ، بالنسبة للأجور الغالية فى الدور الرفيعة للتمثيل .

والبرنامج فى هذا المسرح يبدأ منذ الصباح ، ولا ينتهى إلا بعد منتصف الليل ، فهو فى تكرار خلال هذه الساعات الطوال . وإنه لبرنامج طريف تستطيع أن نعده وافياً بالغرض من تسلية الذهن وتغذيته . . . إنه يماثل وجبة من الطعام خفيفة الهضم ، مستوعبة عناصر الغذاء الصالح . ولو ألقيت نظرة على أى برنامج من برامج هذا المسرح ، لوضحت لك تلك الفكرة فى غير عناء .

البرنامج عدة فصول :

عرض رواية سينمائية من المشهورات . فقلة موسيقية قوامها ستون عازفاً يؤدون قطعة عالمية متعارفة . فغناء تقوم به جوقة يرأسها مطربات ومطربون ممن لهم مكانة ملحوظة وصيت بعيد . فعرض موسيقى غنائى راقص قوامه أسراب من الفتيات يؤدين رقصات شعبية ، وأخرى فنية فى مشاهد جميلة رائعة تتميز بالطرافة فى الإضاءة والإخراج .

أو لست ترى من تضاعيف هذا البرنامج أن الهدف الأول هو تقديم نماذج طيبة لا تنزل إلى مستوى التهريج الرخيص ، ولا تسمو إلى الفن الذى قد يستعصى على سواد الناس ؟

قيل إن الأوبرا محاولة لجمع فروع الفن فى إطار واحد : التمثيل والغناء والموسيقى والتصوير والبيان نثره وشعره .

وإنى لأرى أن « رديوستى هول » هو محاولة أخرى ، وإن تكن فى حداثة عهدها ، لجمع مناحى الفن الحديث فى دائرة واحدة . وقد تنمو هذه الفكرة على الأيام وتتطور حتى تلم شتات الفن على نحو جميل .

وعلى أية حال ، فان هذا المسرح يطمح إلى أن يجعل الفن ديمقراطيا ، وأن يخلع عنه رداء الأرستقراطية التقليدية التى طال عليها الزمن .

ولكن هل يمكن حقا أن تطوى الديمقراطية تحت جناحها روح الفن الرفيع ؟

إن هذا الفن الرفيع فى معناه الأصيل أرستقراطى فى كل ناحية من نواحيه ، فهو سموّ فى التفكير ، وعلو فى الذوق ؛ إنه أرستقراطية الذهن الذى يتفتق عن عبقرية ونبوغ .

ولا نزاع على أن العباقرة فى كل أمة وفى كل عصر نفر قليلون ، وأن ولائد قرائحهم ستظل بمعزل عن المستوى الشعبى الذى ينتظم أفهام السواد .

و إذن فبون ساشع بين أرستقراطية الحياة التى هى فى متناول التغيير والتبديل لقيامها على أسس من الماديات ، وبين أرستقراطية الفن التى هى عصية ممتنعة ، لقيامها على أسس من مواهب خفية ليس إلى اجتلابها من سبيل .

وثمة ظاهرة أخرى فى الفن هنالك ، لا يحتاج التدليل عليها إلى بيان ، تلك هى عظمة الفلم الأمريكى وتفرده بالغلبة ، وسموه إلى القمة .

وجلىٌّ أن هذا الفلم يكاد يستوعب مظاهر النشاط الفنى جميعاً ، فيه تتلاقى الجهود الفنية المختلفة الألوان ، و إليه تجند المواهب والعبقريات فى شتى مناحيها .

ولا مرية أن ملابسات دولية فى الحرب العالمية الأولى ، أتاحت لأمريكا فرصة التجويد فى هذا الفن ، وتزويد الأسواق به ، على حين أن الأمم الأخرى كانت فى شغل بأثقال الكفاح ، فتخلفت فى هذا المضمار . . .

على أنه لو لم يكن الزاد الأمريكى الفنى ثمين الجوهر ، لما أعانته تلك الملابسات الدولية على التغلب والظفر .

ولو ذهبنا نتقصى العوامل التى أبرزت الفلم الأمريكى ، وجمعت حوله الأهواء ، وجعلته فنا عالميا تنفسح له جوانب الأسواق ، لألفينا العوامل يتقدمها عامل الإخراج وما يكتنفه من معدات .

إن المخرج فى الفلم الأمريكى هو روحه وقوامه ، و إن هذا المخرج قد تفطن إلى لب الحياة وزاول من تجارب صناعته وتفهم جمهوره مابصّره بوسائل النجاح . فهو إذا عرض عليك إنتاجه ، حاول أن يضع تجاه نظرك قطعة حية من دنياك التى تعيش فيها ، لا تزيين ولا تزييف ، فسرعان ما تستجيب نفسك لما تشهد ، وسرعان ما تتم بينك وبينه الألفة ، وتحس بأنك تعايش من ترى من الناس ، وتزاول ما يدور من المشاهد والأحداث .

لقد توارى فى الفلم الأمريكى ما كنا نشهده قبلا من مبالغة فى الأداء ، وتلفيق فى الصور ، وتزوير على ما تراه العيون ، وتستشعره النفوس فى دنيا الناس . .

لقد أصبح فن الفلم الأمريكى هو فن الحياة !

محمود تيمور